عنوان المحاضرة : مدخل إلى علم الديموغرافيا

تمهيد :

من الحقائق الهامة في العلوم الإنسانية أن السكان هم المحور الرئيسي الذي تدور حوله و تنبع منه كثير من الدراسات في شتى المجالات ، و يبدأ الدارس في علم السكان بثلاث أسئلة أساسية هي :

- كم عدد السكان الذين يعيشون في منطقة محددة و يكونون مجتمعا ذا صفات مميزة ؟
- ما نوع الذين تضمهم المجموعة السكانية ؟ و ما هي مظاهر اختلافهم عن غيرهم من المجموعات السكانية الأخرى و ما هي خصائصهم الكمية و النوعية ؟
- كيف يتوزع السكان في المنطقة التي يعيشون بها ؟ و ما هي التغيرات المرتبطة بهذا التوزيع ؟

01- تعريف علم الديموغرافيا :

علم الديمغرافيا أو السكان كلمة إغريقية الأصل ، و هي مكونة من قسمين (Demos) و تعني الشعب أو السكان ، و (Graphia) و تعني الوصف ، لتعن الكلمة مجتمعة : وصف السكان و الحديث عنهم .

و مهما تعددت تعاريف علم السكان فأبسط و أشمل تعريف هو " **علم إحصائي يهتم بدراسة حجم و تركيب و توزيع السكان ، و مكونات التغير الأفقي و الرأسي في هذه العناصر الثلاث مثل المواليد و الوفيات و الهجرة ، ثم التغير الاجتماعي للفرد بصوره المتعددة اجتماعيا و اقتصاديا و ثقافيا** " .

02-الكتابات الأولى حول السكان :

علم السكان علم حديث أي أن الاهتمام الأكاديمي و التنظير للسكان حديث نسبا مقارنة مع العلوم الإنسانية الأخرى ، إلا أن تاريخ البشرية يحمل في طياته اهتماما غير مباشر بالسكان و تغيراتهم و

إحصائهم ، إلا أن هذه الكتابات لم تستند للمنهج العلمي بل كانت اجتهادات فكرة و فلسفية ، و سنحاول في هذا العنصر التعرض لأبرز هذه المحطات :

أ- **إحصاء السكان عند الفراعنة :** حيث اهتموا بإحصاء الأراضي و الغلاة لجمع الضرائب ، و كان إحصاء السكان غير مباشر انطلاقا من مقدار المحاصيل الزراعية التي تجمع نهاية الموسم أو السنة ، كما كانت العمليات الحربية و العمليات الإنشائية الكبيرة كبناء المعابد و الأهرامات من الأسباب التي جعلتهم يهتموا بالسكان .

ب- **في الصين :** يعود إلى 2000 سنة قبل الميلاد ، وكان الغرض منه جباية الأموال و المحاصيل و كان "كنفشيوس " أهم من كتب عن السكان في الصين ، تميزت كتاباته بطابع تأملي بعيد عن العلمية و الامبريقية و هو أول من أشار إلى فكرة الحجم الأمثل للسكان و شغلته فكرة التناسب بين مساحة الأرض و مواردها و عدد السكان ، و الانحراف فيها يؤدي إلى تدهور الاقتصاد و كان يرى أن الزيادة السكانية خير و بركة من الآلهة ، و أشار إلى العوامل التي تؤدي نقص السكان كالحروب و المجاعات و ارتفاع تكاليف الزواج ...الخ.

ت- **عند الإغريق :** اهتموا بالحجم السكاني الذي ينبغي أن يتناسب مع القوت و كان شغلهم الشاغل هو إنجاب أطفال أصحاء و أقوياء بدنيا ، أما الضعفاء فيتركون للبرد و الجوع حتى الموت .

ث- **عند اليونان :** من أبرز الذين اهتموا بالسكان عند اليونان هم أفلاطون و أرسطو ، حيث اهتم أفلاطون في جمهوريته الفاضلة بالحجم الأمثل للسكان و حدد في كتابه (القانون) عدد السكان بما لا يزيد عن 5040 نسمة ، مع ملاحظة أن العبيد لا يدخلون في هذه النسبة و قسم الجمهورية إلى وحدات سكانية عددها 12 وحدة ، أما أرسطو فكان أكثر عقلانية و واقعية و اهتم هو الآخر بالعدد الأمثل للسكان متداركا خطأ معلمه بأخذ فئة العبيد بعين الاعتبار في تحديد حجم السكان ، و يرتبط الحجم الأثل بقدرة الدولة على توفير متطلبات الحياة الأساسية و اعتقد بضرورة تدخل

الدولة بتحديد عدد المواليد لكل أسرة ، كما حذر من الزيادة غير المتناسبة بين الطبقات في المدينة بحيث لا يطغى عدد على عدد فتحدث الثورات .

ج- **العرب في الجاهلية :** كان أساس تفاخر العرب قديما هو الكثرة العددية ، فقوة القبيلة تقاس بعددها الكبير ، فكلن هناك تشجيع للزيادة من خلال تعدد الزوجات .

ح- **ابن خلدون :** ركز ابن خلدون على العامل الجغرافي و البيئي ، حيث ميز بين سكان الحضر و سكان الريف ، فسكان الريف أو البدو أكثر عددا بسبب تعدد الزوجات و الزواج المبكر...، أما سكان الحضر أو المدينة فهم أقل عددا لتأخير سن الزواج و تحبيذ الأسر صغيرة العدد إضافة إلى تعقيد حياة المدينة و صعوبتها .

خ- **العصر الحديث :** هنا كانت البدايات العلمية الأولى للسكان على يد "جون جرونت" ، عندما اجتاح مرض الطاعون مدينة لندن سنة 1592، فقد لفتت انتباه هذا الأخير أعداد الوفيات الكبيرة ، حيث عمد إلى تسجيلها في سجلات خاصة على مستوى الكنائس ، فكتب مقالة عن ذلك كانت أول كتابة عن السكان بشكل علمي قارن فيها بين عدد الوفيات في المدينة و عددها في الريف ، و وجد أن نسبة الوفيات ترتفع في المدينة بسبب الازدحام و قلة النظافة شيء يساهم في انتشار وباء الطاعون بسهولة و سرعة ، أما في المدينة فتنخفض نسبة الوفيات بهذا الوباء كون سكان الريف غير متجاورين و الجو النظيف و المفتوح فيه يقلل من انتشاره.

03- روبرت مالتس رائد علم الديمغرافيا :

يعتبر **"روبرت مالتس "** أول من قدم لنا نظرية سكانية سمية على اسمه (المالتوسية) ، تقوم على افتراض علاقة بين النمو السكاني و وسائل العيش أو الغذاء ، مؤداها :

أن السكان يتزايدون وفقا لمتتالية هندسية (1، 2 ، 4 ، 8 ، 16 ، 32 ،...) أي بشكل متضاعف ، بينما يتزايد الغذاء و وسائل العيش وفقا لمتتالية حسابية (1 ، 2، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، ...) أي بشكل محدود ، و

منه توقع مالتس أنه بمرور الزمن سوف يحدث اختلال بين طرفي المعادلة (النمو السكاني و الغذاء) ، لذا وضع جملة من الحلول سماها أو صنفها إلى :

أ – الموانع الايجابية : و تتمثل في الكوارث الطبيعية كالزلازل و الأعاصير و الفيضانات ، و الأوبئة ... و كل ما يؤدي إلى موت العديد من السكان بأعداد كبيرة مرة واحدة ، و بهذا يمكن أن يحث التوازن بين طرفي المعادلة .

ب – الموانع الوقائية : أو ما اصطلح عليه بـ (الضبط الأخلاقي) ، بمعنى الامتناع عن الزواج مع التعفف و الابتعاد عن الرذيلة ، أي كل سلوك قد يؤدي إلى الإنجاب (كالزنا و الزواج غير الشرعي).

إلا أن أفكار مالتس جوبهت بنقد لاذع سواءً من معاصريه أو ممن جاءوا بعده و ذلك لعدة أسباب و معطيات أهمها الثورة الصناعية التي حدثت في أوربا في القرن 19 ، مما حسن وسائل العيش و ضاعف الغذاء و المنتوج باكتشاف وسائل حديثة و متطورة في ذلك ، إضافة إلى اكتشاف وسائل منع الحمل و التدخل الطبي ...للتقليل من عدد السكان ، كلها عوامل جعلت أفكار مالتس تلقى معارضة حينها .

غير أن المعاصرين اليوم و المهتمين بالسكان أعادوا بعث أفكار مالتس من جديد أو ما سمي بـ (المالتوسية الحديثة أو المعاصرة) ، كونها تصدق على بعض المجتمعات في عصرنا الحالي و هي المجتمعات المتخلفة أو النامية في كل من إفريقيا و أمريكا اللاتينية و بعض دول آسيا ، و منه يمكن القول أن روبرت مالتس يعد بحق (أبو الديمغرافيا) .

04- مصادر البيانات الديموغرافية :

تصنف المعطيات والبيانات الديموغرافية حسب الدارسين والمهتمين بالدراسات السكانية إلى أربع مجموعات هي: (جلبي، 2010، 118)

- **المجموعة الأولى**، وتشمل الخصائص السكانية اللازمة لدراسة السكان، وتتعلق بالمواليد، الوفيات، الهجرة ، حجم السكان وتوزيعهم.
- **المجموعة الثانية**، وتشمل الخصائص الاجتماعية للسكان مثل أعمارهم ، جنسهم التي تؤثر وتتأثر بعوامل المواليد والوفيات والهجرة كل البيانات التي تتعلق بالخصائص الاجتماعية.
- **المجموعة الثالثة**، وتشمل الأحداث الاجتماعية وأحوال السكان، مثل الزواج والطلاق، الدخل السنوي، مستوى التعليم، المهنة...الخ
- **المجموعة الرابعة**، وتنطوي على البيانات المتعلقة بالمكونات البنائية للمجتمعات، مثل درجة التحضر، التصنيع، التنمية، الحراك الاجتماعي ، والقيم والثقافة السائدة.

بعد عرض هذا التصنيف لمجموعات المعطيات السكانية، نأتي الآن إلى تحديد المصادر الإحصائية التي نحصل من خلالها على البيانات السكانية وهي تنقسم إلى قسمين رئيسين هما :

أ- **مصادر البيانات الثابتة :** و هي التي تدرس توزيع السكان و تركيبهم في زمن محدد أهمها :

- **التعداد السكاني :** و هو المصدر الرئيسي لكل دول العالم يعرف على أنه " العملية الكلية لجمع و تجهيز و تقويم و تحليل و نشر البيانات الديمغرافية و الاقتصادية و الاجتماعية المتعلقة بكل الأفراد في قطر أو جزء من القطر محدد المعالم في زمن معين " – الأمم المتحدة –

من خصائصه العد الفردي ، الشمول داخل منطقة معينة ، الآنية و الدورية حيث تقوم به الدول كل 5 سنوات أو 7 سنوات أو 10 سنوات ، إذ تتميز دول غرب أوربا و الو.م.أ و اليابان بدقة و شمول بياناتها ، أما أمريكا اللاتينية و بعض الدول العربية فما زالت بعيدة عن ذلك .

أما نقائصه فتكمن في أن السكان قد لا يدلون بمعلوماتهم الصحيحة و الدقيقة عن أعمارهم ، حالتهم الاجتماعية و الاقتصادية و مكان إقامتهم ...الخ مما يؤثر على دقة البيانات المصرح بها .

- **المسح بالعينة :** هي من الأساليب المكملة للتعداد السكاني ، يوفر استخدامها جزءً من الجهد و النفقات ، خاصة في الأعداد الكبيرة و المتوزعة على مساحات شاسعة ، و تصمم هذه العينة انطلاقا من خصائص المجتمع الأصلي كي يسهل تعميمها .

ب- **مصادر البيانات غير الثابتة** : غير ثابتة لأنها تتعلق مباشرة بالظواهر السكانية المتغيرة باستمرار من أمثلتها :

- **التسجيلات (الإحصاءات) الحيوية :**

يقصد بها تسجيل الأحداث الحيوية التي تقع خلال سنة ميلادية ، وهي عملية تتم عن طريق مشروعات التسجيل المصممة لقيد جميع هذه الأحداث .

كسجلات المواليد و الوفيات و الزواج ، تتواجد على مستوى مراكز مختصة كالبلديات أو المستشفيات أو الكنائس، وكذا سجلات الهجرة **التي** تتواجد على مستوى القنصليات و مراكز العبور بين حدود الدول و القارات ، من أجل تسجيل السكان الوافدين و المغادرين ، سواء بشكل دائم أو مؤقت .

- **البيانات الجاهزة:**

هي طريقة غير مباشرة يتم الاستعانة بها من خلال البيانات التي توفرها السجلات الاحصائية والتقارير الرسمية، بحيث تستعين بالسجلات الاحصائية التي تصدر عن تعدادات السكان والتقرير التي تصدرها المؤسسات الصحية والاقتصادية والصناعية والتعليمية والجوازات والهجرة والعسكرية وغيرها، التي تنطوي على بيانات تتعلق بالسكان من حيث نوعهم، أعمارهم، حجمهم، مهنهم، مستواهم الصحي، أجورهم ...الخ

تتميز هذه البيانات بأنها تمنح الباحث فرصة التعامل مع مادة سبق جمعها تعبر عن وحدات كبرى في المجتمع(قرية، مدينة، دولة ككل)، وتعتمد على المجموع الكلي للسكان من خلال الحصر الشامل أو التعداد .

*** تقويم مصادر الدراسات السكانية :**

ساعدت التكنولوجيا المعلوماتية الحديثة على جمع و ترتيب البيانات السكانية و مقارنتها بسهولة باستخدام الحاسب الآلي ، الذي أصبح يمثل ثورة تقنية في الدراسات السكانية و أدى الربط بينه و بين فروع المعرفة الجغرافية و مصادر البيانات المختلفة إلى ظهور ما يعرف بـ **(GIS)** أو **(Geographical Information Sestem)** و هي وسيلة لإدارة الموارد البشرية و البيئة و السكان .

05- علاقة علم السكان بالعلوم الأخرى : (تم شرحها في المحاضرة)